نَـقْد الزَّعِيم وَالزَّعَامِيَة

رحمان النوضة (الصِّيغة 3)

مُـحْـتَـوَى هـذه الـوَثِـيـقَـة :

1) مُـبَـرِّرَات الزَعَامِيَة وَنَتائجها.....2
2) الزَعَامِيَة هِي أَعْلَى مُستوى في الفَرْدَانِيَة.....4
3) تَتَنَاقَضُ الزَّعَامِيَة مَع جَدَلِيَة الطَبِيعَة.....5
4) بَعْدَ مَوت الزَعِيم، تَتَرَسّخ الأزمة.....6
5) تَـتَـنَاقَضُ الزَعَامِيَة مع الديمُقْـرَاطِيَة التَّشَارُكِيّة.....6
6) التَفَوُّقُ لَدَى الأَفْرَاد قَائِم، وَمُتَفَاوِت، ومُتَغَيِّر.....7
7) الطَلِيعِيَةُ هِي أيضًا دَوْرٌ مُتَغَيِّرٌ.....8
8) يُمْكِنُ لِلزَّعِيم أيضًا أن يَتَحَوَّلَ إلى نَقِيضِه.....9
9) التَكَامُل والتَنَاقُضُ بَين الفَرد والجَماعة.....10
10) مِنَ الزَّعِيم المُحَرِّر إلى الزَعِيم المُسْتَبِد.....11
11) الإِنْطِلَاق مِن الشَّعْب، بِهَدَف العَوْدَة إِلَيْه.....12
12) مَا هُوَ البَدِيل عَن الزَعِيم ؟.....13

تُوجد عـدّة أمثلة تُبَيّن أن الإفـراط في مُمَارَسَـة الزَّعَامِيَـة، (سَـواءً مِن طَرَف زَعِيم، أو حزب، أو دولة، أو نظام سياسي)، يُؤَدِّي إلى نَـقِيضِهِ. أَيْ أن الزَّعامية تَـتَسَبَّبُ في الضُّعف، والتَلَف، والفَسَاد، ثم الفشل.

وفي مَا يلي بعض الأمثلة البَـــارِزَة على مُمارسة الزَّعَامِيَة : 1) زَعَامِيَة يوسف اسطالين (Josef Staline)، الـتي سـاهمت في تحويل نظـام "اتحـاد الجمهوريـات الاشـتراكية السُّـوفْيَاتِيَة" إلى إلى نظـام اسـتبدادي. وقد جرّته الحاجة إلى صيانة زعامته إلى قمع، أو سجن، أو قتل، معارضين سياسـيين، حَـقِـيـقِـيِّـــن أو وَهْمِيِّين، كـانوا في البداية يُعَـدّون بِالعشـرات، ثمّ أصـبحوا يُعَـــدُّون بـــــالملايين. وفي عهد ميخائيل غورباتشـــــوف (Mikhail Gorbatchov)، إنهار هذا النظام السياسي من تِلْقاء نفسه. 2) زَعَامِيَة كِيم إِيل سُون (Kim Il Soung)، في كوريا الشمالية، الـتي سـاهمت في تحويل النظـام السياسي "الاشـتراكي" إلى نظـام اسـتبداد، ثم إلى "ملكية شِـيُّوعِيَة" وِرَاثِيَة وَفَقيرة. 3) زعامية بُولْ بُوطْ (Pol Pot)، في كَامْبُودْيَا، التي ساهمت في تحويل نظـــام سياسي يطمح إلى "الإشـــتراكية الســـوفياتية" إلى نظـــام اسـتبدادي يـقتل جـزءا هاما من شـعبه. 4) زعامية فِيدِيل كَاسـتْرُو (F. Castro)، في كُوبَا المُحاصرة، التي ساهمت في دفعه إلى التشبّث بالبقاء في السلطة أكثر من خمسين سنة متوالية. وقد صار غير قادر على إصلاح نظامه السياسي. 5) زعامية الملك الحسن الثاني في المغرب، التي ساهمت في اسْـتِلَابِه (aliénation)، وفي تحوّله إلى دكتـاتور عـديم الشـفقة، يُسَـخّر الدولة والمجتمع والشعب لخدمة ملكيّته المستبدة، ويُمارس إرهاب الدولة ضد الشعب، لإرضـاء كبريائه ونَزَوَاتِه الشخصية. 6) زعامية مُعَمّر القَـذَّافِي في ليبيا الـتي قادته إلى تهميش كل مُعارضـيه، وإلى فـرض سـيطرة أبنائه وقبيلتـه، وإلى حرمـان الشـعب من أية أنشـطة سياسـية، أو اقتصـادية، أو ثقافية، تُخالفه في الذوق، أو في الرأي.

وتُوجد كذلك أمثلة لِزَعَامَات أخرى عبر العالم، كثيرة جدا، ومُتَـفَاوِتَة في أنواعها، وفي درجاتها، وفي أَسَاليبها، وفي نتائجها.

1) مُبَرِّرَات الزَعَامِيَة ونَتَائجها

يرى النـاس عـادة أن العمل بأسـلوب 'الزَعَامَـة'، أي الخضـوع لرغبـات 'الزعيم'، يُسَهّل تدبير الأشياء. لأنهم يعتبرون هذا الأسلوب طبيعي، وَفَعَّال، وجَيِّـد. حيث تتمركز سـلطات تـقـريرية أو قيادية بين يـدي زعيم، واحـد، معروف، موثوق فيه، زيادة على أنه «يَحْظَى بِخِصال مَحْمُـودَة». هكـذا تظهر

الأمـور، على الأقل على مستوى الرُّؤية الأوليـة. لكن التحليل المُعَمّق يمكن أن يُبَيّن أن أسـلوب 'الزعاميـة' يخلق من المشـاكل أكـثر مِمّا يَحُـلّ. وذلك سواء على مستوى الدولـة، أم الحـزب، أم أية هَيْئَة مُجتمعية أخـرى. وفيما يلي، سَنُرَكّزُ على دراسة 'الزعاميـة' في حالة الحـزب (مع العِلم أن دينامكية الزعامية تـعمل بآليـات مُمَاثلة نسـبيا في الحـالات الأخـرى، مثل حالة القبيلـة، أو الطائفـة، أو الجماعـة، أو الجمعيـة، أو المقاولـة، أو الدولـة، أو النظام السياسي، إلى آخره).

وللإحاطة بِمُجمل المشاكل التي تطرحها مُهمّة بناء تنظيم سياسي، أو حـزب، يطمح إلى أن يكـون مناضـلا، ثوريـا، مكافحـا، صـامدا، ومُتجـذّرا في العمال، وفي الفلاحين، لا بُدّ من تناول مشكل الـزعيم أو الزعاميـة. و يمكن أن يَعـني تجاهـلُ هـذا المشكل، أو السكوت عنـه، وجـود إِقْـرَار باسـتعمال الزعامية، أو يمكن أن يُسَهّل اللجوء إلى العمل بها مستـقبلا.

القبول بالزعيم، أو العمل بالزعامية، يفترض تضخيم دور فـرد مُحدّد، هو الزعيم. ويعني، مُقابل ذلـك، تَصـْغِير دور القَوَاعـد، أو تَـقْلِيل أهميّة دور الجمـاهير، أو احتـقار دور الشـعب. ويفـترض كـذلك القَبُـول بِـالزَعيم، أن صاحب الأفكار الصحيحة هو الزّعيم وحـده. وأن منبع الأفكـار السـديدة هي الفِطْرِيَة المُتـوفّرة في الـزعيم. وأن الـزعيم يتـفوّق بشـكل طَبْعِي على كل جماهير الشعب، وبطريقة خارقة للعادة، في مجالات الجُـرأة، أو الشـجاعة، أو الحيويـة، أو الـذكاء، أو الفَهم، أو المُبـادرة، إلى آخـره. ويَفْتَـرِض أن الخِصال المُمْتازة التي تتوفّر في الزعيم هي ظاهرة طبيعيّة، أو استثنائية. كما يفـترض أن هـذه الخِصـال الجَيّـدة، المُتـوفّرة في الـزعيم، لا يمكن أن تَتَوَفّر لدى بقية أفـراد الشعب.

والنـاس الـذين يحتـاجون إلى زعيم، يكونـون، في غـالب الحـالات، يفتـقرون إلى المعرفة العلمية، أو إلى التجربة، أو إلى الخِبرة. أو قد يَنْقُصُهم المنهج المُوَجِّه للعمل. أو قد يكونوا من نوع المواطنين الذين ينفـرون من بذل أي مجهود هام. وقد يفتـقدون إلى الثقة الكافية في أنفسهم.

كما أن الأفـراد الذين يريدون القيام بدور الزعيم، أو يـقبلون بالخضـوع له، يمكن أن يكونوا فَرْدَانِيّين، أو أنانيّـين، أو ذَوِي طمـوح ذاتي. وقد يكونـوا قليلي التواضـع، أو جـاهلين لِقُـدُرَات الجمـاهير. كما يمكن أن يحتـقـروا الإمكانيات المتوفرة لدى غيرهم من المواطنين.

و في غـالب الحـالات، يُعبّر وُجُـود زعيم في تنظيم سياسي، عن وجـود بعض الانحرافـات السياسـية فيـه. أو قد يعـني أن هـذه الانحرافـات بَـدَأَتْ تَـنْمُو داخل هذا التنظيم السياسي.

2) الزَعَامِيَة هِي أَعْلَى مُستوى في الفَرْدَانِيَة

وليس غريبا أن نَجد أن عددا هامّا من المناضلين الثوريين، يطمحـون لكي يصـبحوا زُعمـاء ثـوريين في حـزب كبـير. وليس غريبا أنهم يطمحـون، على الأقل، إلى أن يكونوا ضمن الحاشـية المقـربّة من الزّعيم. وقد نُصـادف بعض المناضـلين الـذين يتصرّفــون، سـواء بشـكل واع أم غـير واع، على أسـاس هـذا الطُمـوح. ويعتبرونه هـدفا طبيعيـا، أو مشـروعا، مثلما هو مشـــروع أن يطمح كل طفل في المجتمع إلى أن يصـــبح رئيسا للبلاد، أو النَّجْمَ الأول في عـالم الفن، أو عبقـريا في ميـدان العلـوم، أو أقـوى الأبطـال الرياضيين، إلى آخره. ومثل هذه الطموحات الفَرْدَانِيَة، هي عَمِيقة، وقديمة في تاريخ المجتمع.

ومع نُمو الرأسـمالية، إزداد إنتشـار الفَــردانية، وتراجع دَور الجَماعة، واضْمَحَلّ التعاضُد المُجتمعي، وتــقلّص الإيمـان بالدَّور الحَاسم الكـامن في الجماعـة، وتـعمّق البحث المتواصل على أقــوى، وأكـبر، وأغـنى، وأحسن الصفات الفردية. وأساس هذا الطُموح للزعامية هو اعتــقاد الفـرد المعـني أنه مُتــفوّق على كل مواطنيــه، أو أنه هو مَرْكَـزُ الكَـوْن، أو أنه هو صـانع التاريخ. والمُرَشّح للزَّعَامَة يطمح عـادة إلى تحقيـق ذاته أكـثر مِمّا يطمح إلى خدمة جماعته أو شعبه.

بينما في الواقـع، لا يسـتطيع أيّ فــرد أن يُوجَـد، ولا أن يكتسب أي معنى، ولا أيَّة قُدرة، خارج التَشْكِيلَة المُجتمعية التي يَعيش داخلها. وصـانع التـاريخ، ليس هو الفـرد، مهما كـان. وإنما هو الجمـاهير، هو الشـعب، هو المُجتمـع، هو الطبقـات والفئـات الطبقية الثوريـة، في صـراعها مع نقيضـها الــذي يتكــون من الطبقــات أو الفئــات المُسَــيطرة، أو المُسْتَغِلّــة، أو المُضْطَهِدَة.

3) تَتَنَاقَضُ الزَّعَامِيَة مَع جَدَلِيَة الطَبِيعَة

وعندما يُحاول عـادةً المناضـلون الثوريـون الإطّلاع على تجـارب ثورية رائـدة، (مثل تجـارب ثـورات روسـيا، أو الصـين، أو فتنـام، خلال القـرن العشرين الميلادي، أو غيرها)، فإنهم يتـأثرون بكـون الوثائق الـتي يدرسـون من خلالها هــذه الثــورات تُقِيم تَطَابُقا بين الحــزب وزعيمــه. وفي هــذه الوثائـق، يوجد في غـالب الحـالات تَضْخِيم مُبـالغ فيه لِـدَوْر الزَّعِيم. بل إن هذه الوثائق تَنْسُب الفضل في أهم الإنجازات إلى الزعيم وحده. وبالمقابل، تلجأ هذه الوثائق إلى تصوير الشعب أو الحـزب، وَكَأنّه عِبـارة عن كتلة من الأنصـار، أو مجموعة من الأتبـاع، أو قطيع من الأغنـام، يَرْعَـاه رَاع، وهـذا الرَّاع هو الزَعيم. فَمَنْ هو المُـواطن الـذي لم يحلم يومـًا مَـا بِالحُصـول على عَصَى الرَّاعِي، أو على عصى رئيس الأُرْكِسْترا، أو على صولجان الملك ؟

ونلاحظ أن الـزعيم يتحـوّل، في غـالب الحـالات، إلى زعيم "على مـدى الحيـاة"، وذلك رغم أن مواقفـه، أو ممارسـاته، تتطـور وتتغَيّر مع مُـرور الزمان. حيث لَا تظلّ دائما مُمتازة، وإنما تَعْلُو وَتَهْبِط، تتحسّن وتفسد.

ويُصاحب وجود الزعيم، ظهور نوع من الانتظارية، أو من الإتِّكَالِيّة على هذا الـزعيم، لـدى قـواعد الحـزب، أو لـدى الجمـاهير الـتي تُؤمن بزعامتـه. فَيَعْتَمِـدُ عليه أتباعه لكي يُبَلـور لهم الأفكـار، والخُطَـط، ولكي يَسـهر على حُسن إنجـاز البَـرامج، ولكي يُقيم فَـرْزًا ثَـاقِبًا بين الأشـخاص المقبـولين والأشخاص المَنْبُوذين، وَبَيْن الصَّالحين والفَاسِدين، إلى آخره.

وفي علاقاته مع أتباعه، أو مع الجماهير، غالبا ما لا يستـعمل الـزعيم الإقناع المنطقي، أو العقلاني. ولكنه يستعمل مَرْتَبَتَـه القيادية، أو سُلطته التنظيمية، أو قُوَّة أنصاره، أو فَنّـه الخَطابي، أو تَفَـوُّقَه الفطري، لتـغليب مواقفـه، ضد كـلّ الـذين يخالفـون رأيـه، أو يعارضـون اقتراحـه. وقد يلجأ أحيانا الـزعيم إلى حَسْـمِ خِلَافـات سياسـية، رغم أن هـذه الخلافـات لم تُـنَاقَشْ بَعْدُ بما فيه الكفاية وَسط قَواعد الحزب، أو وَسط الجماهير.

4) بَعْدَ مَوت الزَعِيم، تَتَرَسّخ الأزمة

وعندما يغيب الزعيم، مثلا نتيجة لموته، تَحُلّ الحيرَة، ويَعُمّ الغُموض وَسط الحـزب المَعْنِي، أو قد ينتشر داخله التَذَبْـذُب، أَو يَعُمّ الضـعْف وَسط الجمـاهير الـتي كـانت تُسـاند هـذا الـزعيم. وَقَـد يَـكتشف أَتْبَـاع الزَعيم أن

إتّـكَالهم السّـابق على زعيمهم سـاهَم في إضـعاف خِبْـرتهم، وفي تَـقْليص يَقَظَتهم، وفي إفْقَار تَفَاعُلِهم مع تَجاربهم. ثم تَحْتَدِم المُنافسة الحَادَّة فيما بين الطَّامحين إلى احتلال مَـكان الـزعيم الرَّاحِـل. وقد يتم تنصـيب أحد المُـقَرَّبين من الزعيم السَّابق زَعيمًا جديدا، وذلك فقط لأنه كان مُقربًا منه، وليس لأنه يَمتاز بخِصال خَارِقَة. لكن الزعيم الجديـد، الـذي يَخْلُـف الـزعيم القديم، غالبًا يكون ضَعِيفًا، أو مُتَخَلِّفًا بالمقارنة مع الزعيم السَّابق. وغالبًا ما يكون خَلَفُ الزَّعِيم غير قادر على فَهْم ومُعَالَجة المشاكل الكبـيرة. وقـد خَلَـف الـزعيم غـير مُؤَهَّل لِإنتـاج مُنجـزات أو نجاحـات مُمَاثلَـة لتلك الـتي كان سَلَفُـهُ يُحَـقّـقَها. (وذلك بالضّبط هو مـا حـدث مثلًا في رُوسيا بعـد مـوت القائد فْلَادِيمِير لِينِين، وكذلك في الصِّين بعد موت القائد مَاوُو تْسِي تُونْغْ).

وقد يُـؤدّي العمل بمنهجية انتخـاب "كـاتب عـام"، أو "رئيس"، داخل حزب مُعَيّن، خاصة إذا كان مَصحوبا بإعطائه صلاحيات تـقـريرية واسعة، يـؤدي إلى إلغـاء العمل بأسـاليب "التَشـاوُر"، أو بطريـقة "الديمقـراطية التَّشَـارُكِية"، أو بمنهج "القيـادة الجماعيـة". كما يُسـاعد على ترسـيخ نَهْج الزعامة داخل الحـزب. كما يجعل نهج الزعامة يشـمل كـلّ العلاقـات التنظيميـة. حيث نجد مثلا الإطـارات القاعدية تنتخب هي أيضا "أمينـا عَامًّا"، أو "رئيسـا"، ونجد القيـادات المحليّة، أو الجهَوِيَـة، أو الإقليمية، تنتخب هي الأخرى "أمينًا عامًّا" أو "كاتبا عامّا"، إلى آخره. وكـلّ "أمين"، أو "كاتب عام"، أو "رئيس"، على صعيد تلك الإطارات التنظيمية القاعديّة أو الوَسطية، يَتَصَرّف عمليا وكأنه "زعيم" صغير، مُقَابِل لِـ "الزعيم" الأكبر على مستوى الحـزب المعـني. وعلى صعيد مختلف الهيئات التنظيمية، يعمل هـؤلاء الزعمـاء على إعـادة إنتـاج منهجية الزعاميّـة، ويُرَسّـخون نوعية علاقات الزعيم بمرؤوسيه.

5) تَتَنَاقَضُ الزَعَامِيَة مع الدِيمُقْرَاطِيَة التَّشَارُكِيّة

ويميل عـادة أنصـار الـزعيم، (سـواء على صـعيد محلّي أم وطـني)،إلى إعتبار هـذا الـزعيم فـوق الجمـاهير. وينظـرون إليه كأنه هو الـرأس المفكّر لِمُجمل التنظيم أو الحـزب. ويظُنّـون أن الـزعيم يَحْظَى بمنهج في التـفكير

خارق للعادة، وأنه يستحيل على أي مواطن آخر أن يكتسب هذا المنهج في التفكير. ويتطرّف بعض أتباع الزعيم إلى حدّ اعتبار هذا الزعيم كَنَبِيّ، أو كَنصف إلَاه. ويشجّع هذا الصِّنْف من المُعاملة الزعيمَ على التّحَوّل إلى دكْتَاتُور، أو مُسْتَبِدّ. وإذا لم يصبح بَعْدُ ديكْتَاتُورا، فإنه يتطوّر بالضرورة لكي يتحَوّل إلى دكتاتور. لأن منطق الزعاميّة يتناقض مع منهج الديمقراطية، وكذلك مع المركزية الديمقراطية.

وُجود الزعيم في حزب ما، هو مُؤَشّر يُعبّر عن غياب منهجية الديمقراطية. أو قد يَدُلّ على انعدام المركزية الديمقراطية فيه. أَمَّا إذا كان حزب مُحَدّد يُطَبّقُ فعلاً منهجية الديمقراطية، أو يعمل بأسلوب المركزية الديمقراطية، فإن هذه المنهجية الديمقراطية تُؤَدّي، وفي آخر المطاف، إلى إلغاء مُجمل الأسس التي تُمكّن أي مَسْئُول من التّمَيّز كَزَعِيم. لأن العمل بمنهجية الديمقراطية يفضح محدودية خِصَال وقُدرات الزعيم المُفترض. وَيبْرزُ أيضا أن بَاقِي الأعضاء في الحزب، أو باقي المواطنين، يمكن أن يتوفَّروا، هم أيضا، على طَاقَات مُتنوّعة، أو مُتفاوتة، أو هائلة، لكنها مُتكاملة فيما بينها. الشيء الذي يفرض على الشَّخْص المُرشّح للزعامة بأن يتصرّف بتواضع. كما يفرض عليه القبول بالمساواة السياسية، أو بالديمقراطية، مع رفاقه في النضال، أو مع مواطنيه داخل الشعب.

فالعمل بمنهجية الديمقراطية يُقَلّصُ، أو يُلْغِي، إمكانية بُروز شخص مَا كَزَعِيم. وتُذَكّر بأن أيّ شخص، ومهما كانت خِصاله الحميدة، أو قُدراته، أو خِبْرَاتُه، يصبح لا شيء إذا لم تُسانده قاعدة الحزب، أو إذا لم تُدعّمه بقية الجماهير، أو إذا لم تتعاون معه بَقيّة الشّعب. ويُبْرِزُ أن الطليعة الحقيقية تتجلّى في عدّة طَبقات، أو في مُجمل الشعب، وليس في فَرْد واحد، أو في جماعة مُحدّدَة، أو في حزب مُعَيّن. (وما أكثر المناضلين الذين أساؤوا فهم "الطَلِيعَة"، أو "الطَلِيعِيَة"، لدى مُنظرين أمثال كارل ماركس، أو فلاديمير لينين !).

6) التَفَوّقُ لَدَى الأَفْرَاد قَائِم، وَمُتَفَاوِت، ومُتَغَيّر

صحيح أن المواطنين ليسوا مُتساوين في خِصالهم، أو في قُدراتهم. فلا يتساوى المجتهد مع الكسول، ولا المناضل مع الانتهازي، ولا العالم مع

الجاهل، ولا الخَبير مع المُبتديء، ولا المُنتج مع المُبذّر، ولا المُستقيم مع المُنحرف، ولا المُبدع مع المُقَلّد، ولا النَاقد مع المُتَملّق، إلى آخره. فلا يُعقل، ولا يُقبل، أن نسمح لشخص ما بأن يتحمّل مسؤولية مُحدّدة، وذلك فقط بِمُبَرّر "ديمقراطية" مَائعَة، أو بِدَعْوَى أن كل المواطنين مُتَساوون فيما بينهم. فالمواطنون، وكذلك المناضلون، يتفاوتون في قدراتهم، وفي طاقاتهم. وَيَتَفَاوَتُون في الفكر، وفي العمل، وفي الخِبْرَات، وفي الإنتاج، وفي النضال، وفي العطاء، وفي درجة التضحيّة، إلى آخره. وتفاوتهم هذا، يكون هو نَفْسُه في تَغَيُّر مُتَوَاصِل.

وإذا ما تفوّق شخص أو جماعة، فإن هذا التفوّق لا يكون قائما في جميع الميادين، ولا يكون ثابتا عبر الزمان. بل غالبا ما يكون محدودا في بضعة مجالات، ومتغيّرا عبر الزمان، حيث يكون في حالة مَدّ وَجَزْر، يَصْعُدُ تارةً، وَيَهْبِطُ تارةً أخرى. ومع الشيخوخة، تَتَنَاقَصُ طاقات الفرد، أو تَضْعُفُ، لكنها لا تَتَحَسَّنُ بِلَا حُدود.

وعندما يظهر أن بعض الأفراد مُتَفَوّقُون، أو طَلِيعيُّون، بالمقارنة مع بقيّة مواطنيهم، فإن هذه المظاهر لا تُبَرّرُ تَقْديسَ الفَرد، وَلَا تُجيزُ إِلْغَاء دَور الجَماعة، وَلَا تُبيحُ إِنْكَارَ أنّ أيَّ فَرْد، وَمَهْمَا كان، لا يستطيع تحقيق أيّ شيء ذي أهميّة إذا لم يَتعاون بشكل مُتواصل مع مُجمل أفراد مُجتمعه.

7) الطَلِيعِيَةُ هِي أيضًا دَوْرٌ مُتَغَيّرٌ

البعض يُعلن (من جانب واحد) أنه هو "الطَلِيعَةُ" في مَيْدَانه، أو في إقليمه، أو في مُجتمعه. ثمّ يَعْتقد أن "الطَلِيعِيَة" هي امتياز أَو احتكار خاص به هو وحده. وفي هذه الذاتية يُوجد غُرُور كَبير. بينما لا يحقّ لأي فرد، وَلَا لأيّة جماعة، ولا لأيّ حزب، أن يَدّعِي، أو أن يُقَرّر، بشكل أُحَادِي الجانب، أنه هو "الطَلِيعَة". بل الشعب، أو الجماهير، هي المُؤَهّلة لكي تصف شخصا أو حزبا بأنه "طَلِيعِيٌّ"، وذلك بسبب تقدّمه، أو تَفَوُّقِه، أو فَعاليّته، كَفَاعِل سياسي.

وإذا ما وُجدت "طَلِيعَةٌ" سياسية ثورية مَا، فإنها لا تستقِرّ، ولا تَدُوم، في شخص مُحَدّد، أو في جماعة مُعَيّنة، أو في حزب بعينه، أو في طبقة

مُحـدّدة. فالطليعية ليست صـفَة ذَاتيَـة، ولا خِصـلة شخصـية، ولا مِلْكِيّة خاصة. فلا يمكن فـرض صفة "الطَليعَة"، ولا امتلاكها، ولا احتكارهـا. بل إن الطليعة السياسـية، باعتبارها ظـاهرة مُجتمعية وتاريخيـة، تكـون دائمـا، وبالضرورة، هي نفسها في تَحَوُّل مُستمر. فتكون تـارة طليعـة، وتصبح تـارة أخرى مُؤَخّرة. اليوم يبرز شخص أو جماعة كطليعة، وغدا يظهر فـرد آخـر، أو جماعة أخـرى، كطليعـة. وذلك حسب نوعية أفكـارهم، أو حَسـب جَـوْدَة مُمارستهم. وَيَحْدُثُ نَفس الشيء بالنسبة للحـزب، أو لِلطَّبَقَـة المُجتمعيـة. بل كلما ظهر فـرد أو جماعة كطليعـة، فـإن هـذه الطليعة تُوجد خلال فـترة محدودة، ولا تكون دائمـة. وتكـون قائمة في ميـدان محـدود، وليس في كل الميادين التي يعيش عليها المُجتمع.

ليس الزعيم هو الطليعة، وليست الطليعة هي الزعيم. الحـزب الطليعي هو الـذي ينجح في حَثّ أحـزاب مُتَعَـدِّدَة، أو في إقنـاع تيـارات سياسـية مُخْتَلِـفَة، ويجعلهم يـقبلون بِخَـوْضِ أعمـال نضـالية مُعيّنة، مُشْـتَرَكَة، وَمُتَوَاصِـلَة معـه. والطبقة الطليعيـة، هي الـتي تنجح عمليا في استـقطاب طبقات، أو فئـات طبقية أخـرى حولهـا، وتـفلح في جعلها تشـارك فعلا في مبـادرات سياسـية، أو في خـوض نضـالات مُشـتركة، أو تـدفعها إلى المسـاهمة في تحقيق إنجـازات مُجتمعية. فالطليعية تتجلّى في خلق حركة نضـالية مجتمعية، أو في تَغْدِيَـة دِينَامِيكِيَـة تَاريخية. وتـبرز الطليعية في طاقـات، وفي وعي، وفي ممارسـة، وفي مبـادرات، وفي إنجـازات، يُفْـترض فيها أنهـا جديـدة، أو ثاقِبـة، أو فَعّالـة. وكلّ فَاعِـل سياسي لا يحظى بـدعم فـاعلين سياسـيين آخـرين، لا يـرقى إلى الطليعيـة. وَتَفْتَـرِضُ الطليعية الحصـولَ على أصـدقاء يُعِينُـون، أو اكتسـابَ حُلفـاء يُسـاندون، أو حِيَّازَة أنصار يُدَعّمُون. ومتى فقدت الطليعةُ هذه الخصائص، تكون قد تـقهقـرت، أو فقدت دورها الطليعي، وذلك ولو مرحليًّا.

8) يُمْكِنُ لِلزَّعِيمِ أيضًا أن يَتَحَوّلَ إلى نَقِيضِه

وما لا يراه الذين يُناصرون زعيما محدّدا، هو أن الخِصَال أو القُدرات الـتي مَـكّنَت في السّابق ذلك الـزعيم من أن يصـبح زعيمـا، تتطـوّر عـبر الزمان. بل قد تَتَـقَـوَّى، أو تَضْمَحِل، أو تَزُول، أو تتحوّل إلى نَـقِيضِهَا. لأن

كل شيء يمكن أن يتحوّل إلى نَقيضه. ولأن كل صَيْرُورَة لها بداية، ثم نُمُو، ثم شَيْخُوخة، ثم نهاية. وذلك في ارتباط بتطور المُجتمع نفسه. وخطأ أنصار الزعيم هو أنهم يستمِرّون في تقديسه، ويظلّون يؤمنون بأن الصفات الخارقة للعادة المفترضة في الزّعيم تَبْقَى ثَابِتَة وَمُسْتَقِرَّة. وأن لا أحد من أبناء الشعب يمكن أن يَتّصِف بخصال مُشابهة. لكن التجارب التاريخية تُبَيّن أن الزعماء، عندما يصلون إلى ذِرْوَة مَجدهم أو شُهرتهم، يتحوّلون في غالب الحالات إلى نَقِيض ما كانوا عليه عند بُرُوزِهم لِأَوَّل مَرَّة كَزُعَمَاء.

وإذا ما سبق لزعيم ما أن قام فعلا بدور بارز في تقديم حركة التاريخ نحو التقدم، فمن المحتمل جدا أن يتحوّل هذا الزعيم، فيما بعد، إلى نقيضه. حيث يمكن لهذا الزعيم أن يلعب دورا حاسما في عَرْقَلَة، أو في كَبْح، حركة التاريخ نحو التقدّم. لأن كل شيء في تحوّل مُتَواصِل. وقد يتحوّل الزعيم، كغيره، من فترة لأخرى، من موقف إلى نَقِيضِه، ومن دَوْرٍ إلى عَكْسِه، ومن حالة إلى نَقِيضِها.

9) التَكَامُل والتَنَاقُضُ بَين الفَرد والجَماعة

ما هو العَامل الذي يجعل شخصا (أو جماعة) يَتَبَوّأ مَرْتَبَة طَلِيعَة ثورية، في مرحلة ما، أو في مَيْدان ما، أو في إقليم محدّد، أو في مُجتمع مُعيّن ؟ هذا العامل هو الفكر، أو المُمارسة، أو الإنتاج، الذي يقوم به ذلك الشخص (أو تلك الجماعة)، وليس صفاته الشخصية، أو خصاله الفَردانية. وهذا الفكر، أو الممارسة، أو الإنتاج، وباعتبارهم ظاهرة مُجْتَمَعِيّة، فإنهم لا ينحصرون في خِصَال الشخص، بل هم يَكْتَسِبُون دائما بُعْدًا مُجْتَمَعيّا. ويتطوّرون بالضَّرورة في ارتباط بِتَطوّر المُجتمع.

الفَهْم الجَدَلِي للمُجتمع هو الذي يُسَهِّلُ إدْرَاك وُجود علاقة وَطِيدَة بين الفرد والمجتمع. تارة يقوم فرد ما، أو بضعة أفراد، بدور رائد، أو مُؤثر، أو ذي بعد تاريخي. ويُساهم في تقديم حركة التاريخ، لأنه يتفاعل بشكل فَعّال وعميق مع القوى المُجتمعية الأكثر حَيَوِيّة. ولأنه يُساهم، إلى جانب الجماهير، في إنجاز تغييرات أصبحت ناضجة مجتمعيا. وتارة أخرى، لا

يستطيع أي فرد، ولا أية جماعة، أن تنجز أي شيء ذي أهميّة، إلا إذا كان جزء كاف من المجتمع مُهَيَّئًا، أو نَاضجًا، أو مُسَانِدًا لذلك الشيء.

وفي ظَرف مُحدّد، يُمكن لِفَرد، أو لِبِضْعَة أفراد، أن يكونوا في تفاعل عميق مع جزء واسع وفَعّال من جماهير المجتمع، فينجزون، بمشاركة، أو بمساندة هذه الجماهير، تغييرات تاريخية هامّة. والعكس ممكن أيضا، حيث، خلَال مَرحلة مَا، يُمكن لِفَرد، أو لِبِضْعَة أفراد، أن يَمْنَعُوا، أو أن يكْبَحُوا، أو أن يُؤَجّلوا، طموحات شعب بكامله، أو تَقدّم مُجتمعه. فتارة تستطيع القوى التقدّمية تحقيق مطالبها، أو تقدر القوى الثورية على إنجاح طموحاتها. وتارة أخرى تنجح القوى المُحافظة في منع التغيير، أو تَفْلَح القوى الرجعية في فرض استمرار سُلطتها، أو بقاء قِيَمِها التقليدية المُحَافِظَة. وذلك إما عبر الصِّراع السياسي، أو الجدَال الفكري، أو عبر الحِيَل، أو التَضْلِيل، أو عَبر القَمْع، أو القَهْر، أو العُنْف، أو التَرْهِيب. كل هذه الأشياء مُمكنة.

10) مِنَ الزَّعِيم المُحَرِّر إلى الزَعِيم المُسْتَبِد

التّفَوّق الخارق للعادة، الذي يُفْتَرَض وُجوده في الزعيم، يُستعمل كمبرّر لتَمْتِيعه بامتيازات غير عاديّة. ثم يتحوّل الزعيم إلى نوع من الشَّيْخ، أو الصَّالِح، أو الوَالِي، أو الأمير، أو المَلِك. ويمكن أن تحدث هذه الظاهرة، سواء داخل حزب مُحافظ، أم داخل حزب ثوري. وقد يُقْدِم هذا الزعيم على إحاطة نفسه بحاشية من الأنصار الأكثر إخلاصا له. وقد يتحوّل بعض الأنصار المقرّبين من الزعيم هم أنفسهم إلى نوع من الأمراء، ولو كانوا أمراء من الدرجة الثانية. ثم يُقْدِمُ كل واحد من هؤلاء الأنصار على إحاطة نفسه، هو بدوره، بحاشية من الأَتباع أو الأنصار. وهكذا دواليك، إلى آخر مرتبة في المجتمع. وَيَقْتَسِمُ هؤلاء المُقَرَّبين من الزعيم بعض امتيازاته. ويعمل أفراد هذه الحاشية على صيانة تلك الإمتيازات، بل ويحرصون على توسيعها، أو تنويعها. ويناضلون لإدامة العمل بأسلوب الزعامية (أو الأَمِيرِيَة، أو المَشْيَخَة، أو المَلَكِية).

ومهما كان الزعيم عبقريا، فإنه لا يستطيع أن ينتج، على مستوى الفكر، أو الوعي، سوى رؤية وحيدة الجانب. كما لا يمكنه، على مستوى

الممارسة، أن يقوم إلا بعمل جزئي ومحدود. فلا يقدر الزعيم على أن يجعلنا نستغني عن تعبئة الجماهير، ولا عن إشراكها في تطبيق البرامج المُخَطّطَة. بل يَظلّ مَنهج "الإنطلاق من الجماهير، بهدف العودة إليها" هو المنهج الوحيد السليم، لأنه هو الذي يُوصِلنا إلى الرّؤية الصحيحة، وهو الذي يُساعدنا على بلورة البرامج السديدة، ويُمكّننا من إنجاز المُخَطّطَات المُسَطّرَة. وهو المَنْهَج الذي يُمكن أن يُعطي لِمُمارستنا النضالية بُعْدَها الجماهيري، وأفُقها الثوري السليم.

11) الإنْطِلَاق مِن الشَّعْب، بِهَدَف العَوْدَة إِلَيْه

مَن هو مُحَرِّك المُجتمع ؟ من هو صَانِع التاريخ ؟ هل هو الزَعيم أم الجماهير ؟ إن كل مبالغة في دور الزعيم تؤدي بالضّرورة إلى الْإِنْتِقَاص من دور القَوَاعد والجَماهير. كما أن كل محاولة لتجاهل دور الأَفراد المتقدّمين، أَو لنفي دور الشخصيات الطليعية، يسقط في نوع من الطُوبَاوِيَة التي تَنْكُرُ تَفَاوُت الأفراد والمواطنين، في خِصَالهم، أو في طَاقاتهم، أو في كَفَاءَاتهم.

صانع التاريخ ليس هو الزعيم. إنما الزعيم هو مُجَرَّد ذُرَّة جُزئية في كَوْنٍ شُمولي. مُحَرّك التاريخ، ليس هو الزعيم، وإنما هو تَصارع مُكَوّنات المُجتمع المتناقضة. والزعيم، في حالة وجوده، هو نفسه منتوج ظَرفي ومَوضوعي للصراع بين مُكَوّنات المُجتمع المُتَنَاقِضَة.

المجتمع هو الذي يَخلق الزعيم، وليس الزعيم هو الذي يخلق المُجتمع. وإذا ما بقي أي زعيم معزولا عن الجماهير، فإنه يصبح بلا فعالية ولا قيمة. بينما الجماهير، ولو فقدت زعيمها المُفْتَرَض، ولو حُرِمت من المبادرات الثاقبة لزعيمها، فإنها تبقى قادرة، آجلا أم عاجلا، على فرز طلائع جديدة، وعلى مواصلة النضال، بهدف تحقيق انعتاقها أو تحرّرها.

الزعماء والطلائع والجماهير العريضة، يَتَكَامَلُون فيما بينهم. وصاحب الدَّوْر الرئيسي أو الحاسم، هو الجماهير. ودور القادة، أو الزعماء، أو الطلائع، سواء تجسّدوا في أفراد، أو في جماعات، أو في تنظيمات، أو في أحزاب، هو الدَّوْر الثانوي، أي المُكَمِّل للدور الأول. وتعظيم دور الزعيم،

أو المبالغة في دور الطليعة، يساعد على تـقليص دور الجماهير. كما يمكن أن يؤدّي إلى احتـقار دور القـوَاعِد، أو إلى تـقليص دور الشعب.

12) مَا هُوَ البَدِيل عَن الزَعِيم ؟

مُهمّة الحــزب، أو مهمة الدولــة، ليست هي تَسْـخِير المواطــنين لكي يُطيعـوا الـزعيم، أو لكي يُنجزُوا رَغَبَاتـه. بل مُهمّة الحـزب أو الدولة هي رفع مسـتوى خِصَـال أكـبر عـدد مُمكن من المواطـنين لكي يَتحلّـون بأحسن الصِّفات الممكنـة، في مجـالات الـوعي، والمعرفـة، والعَـقْلَانِيَة، والإنتـاج، والتضامن. مُهمّة الحزب أو الدولة هي تكـوين وتأهيل أكبر عـدد ممكن من المواطـنين لكي يُصـبحوا في مسـتوى الزَعَامَـة، أي لكي يُصـبحوا نَـقِيض الزَعِيم.

هل المجتمع يحتاج إلى زُعماء ؟ هل المواطنـون هم بمثابة مَكْفُـوفين يحتــاجون إلى مُبْصِــر يُــوَجّهُهم ؟ لا، ليس بالضــّرورة. ولو أن الأفــراد يَتَفَاوَتُون في الأدْوَار التي يَقُـومون بها. إن انتشار الجهل هو الـذي قد يُبَـرّر الحاجة إلى زعيم. وَكُلَّمَـا اِنْتَـشَرَ الجَهـل، تَـكَاثَر عـدد الزُّعَمَـاء، وَكُلَّمَـا اِنْتَشَرَتْ العُلُوم، تَضَاءَلَ عدد الزُعماء. والانتشار الديمقـراطي للمعرفة هو الــذي يُســاعِد على تَــحْوِيل كل مُــواطن إلى زَعيم لِنَفْــسه. ما يحتاجه المُجتمع أكـثر، هو أن يَعِيّ كل مـواطن منـه، أنه لا يُسـاوي شـيئا خـارج جماعته أو مجتمعـه. يجب أن يَعِيّ جَيّدا كل مـواطن عُيُوبه ونُـقَطَ ضُعف، وأن يُدرك في نفس الوقت قُدُراته وطاقاته. ويلزمه أن يعترف بذلك عَلَنًا.

وما يحتاجه المُجتمع أيضا هو أن يكتسب كل مواطن مَنْهَجًا جَدْلِيًا في مجـالات التـفكير، والإنتـاج ، والاسـتمتاع بالحيـاة. يَلـزم كل مـواطن أن يُـدرك أنه لا يمكن أن يعيش أو أن يحـيى إلا عَبْـرَ التـعاون والتضـامن فيما بين كل مُكَوّنـات المُجتمع. ويحتــاج الشـعب إلى تنظيم أفــراده، بهـدف إحداث تنسيق فعّـال فيما بينهم. ويحتـاج المـواطن، وكـذلك المجتمع، إلى العقـل، أكـثر مِمّا يحتـاج إلى الأَيْدِيُولُوجِيَـة. وَالعَقْلَانِيَـة هي المَنْهَجِيَـة الـتي يُمكن أن تَحمي الانسان من الانحراف، أَو من الْاسْتِلَاب. ولو أن العقل يظل هو نفسه قابلا لِلْخَرَف، أو لِلْهَذَيَان، أو لِلضَّلَال. بينما غِيَّابُ العَقْـل يُـؤدّي حتمًا إلى الضَّيَاع.

وَتُسْتَحْسَنُ الإستفادة من دروس الثورات الكبرى، أو الرَّائِدَة (مثل ثورة فرنسا في 1789، وثورة روسيا في 1917، وثورة الصين في 1945، إلى آخره). وبعضها يُؤَكّد على مباديء بسيطة وهامّة. نَذْكُر من بينها المبادئ التالية : سواءا داخل الحزب أم داخل الدولة، يجب العمل بأسلوب المُرَاقَبَة المُتَبَادَلَة (فيما بين مجمل المواطنين), وكذلك بأسلوب المُحَاسَبَة المُتبادلة. وقد يكون النَقْد المُتبادل (فيما بين المواطنين) أكثر إفادة من الزعيم.

ويَنْبَغِ على كلّ عُضو أو مَسئول في الحزب أن يخضع لِمُحاسبة المواطنين، وَلَوْ لَمْ يَكن هؤلاء المواطنون أعضاء في الحزب. بل يحقّ للجماهير أن تُطالب بسحب العُضوية من أي عُضو في الحزب إذا اعتبرت هذه الجماهير أن هذا العضو غير خَلِيق بهذه العُضوية. لأنه يُفْتَرَض في الحزب أن يكون في خِدمة الجماهير، وليس ضِدّهَا. (وما قُلناه هنا عَن حالة الحزب، يَنْطَبِقُ أيضًا عن حالة الدولة).

كما يُستحسن تَقْنين إمكانية سَحْب المَسؤولية، من أي مسئول كان (سواء في الحزب، أم في الدولة)، إذا طالب الشعب بذلك. وقد قال مَاوُو تْسِي تُونْغْ : «لَا يَصِحُّ، ولا يُقبل، أن تبقى الجماعة القائدة بدون تغيير، في بداية معركة كبيرة، وفي وسطها، وكذلك في نهايتها»[1]. فَمَا بَالُكَ بِبعض الأفراد الذين يَتَشَبّثُون دائما بالبقاء في مواقع المسؤولية، على مدى الحياة، رغم تحمّلهم مسؤولية قيادة عدّة معارك كبرى، مُتَوَالِيّة، وفاشلة !

وبمناسبة اِنْعِقَاد أيّ مؤتمر وطني، أو إقليمي، للحزب، يُستحسن أن نستفيد من هذه المناسبة لكي نُحدث تغييرا دوريا في الهيئات التنظيمية المسئولة، مع إمكانية الحفاظ في كل مرّة على نسبة قليلة من الأعضاء القُدامى في هذه الهيئات. ثم نَرجع لِتَغييرها هي بدورها في المَرَّات اللَّاحقَة. وكان الحزب الشيوعي بالصين (في عهد ماوو تسي تونغ) يعمل بأسلوب "الثُلُث" عند تكوين مُختلف هيئات الحزب المسئولة. حيث كان يحرص، قدر الإمكان، على أن تتكوّن كل هيئة مسئولة من ثلث من الأفراد المُسِنّين، وثلث من مُتَوَسّطي السِنِّ، وَثُلُث من الشبّان.أو يَحرص على أن تتكوّن كل هيئة مسئولة من ثلث من الأفراد الخُبَراء أو المُجَرَّبين، وثُلث من مُتوسطي التجربة، وثلث من المناضلين المُبْتَدِئين. والهدف من

1ذُكِرت هذه المَقُولة في "دفتر يانان"، العدد 4، 1977.

ذلك هو التَكَامُل، وَتَبَادُل الاستفادة، وتكوين الأطر والأجيال القادمة. كما أن هذا الإجراء يدخل ضمن أسلوب معالجة التناقض بين العمل القيادي والعمل القاعدي.

وحينما تَنْسُبُ تَقارير الحزب أو دعَايَتُه الإنجازات الرائعة إلى أفراد، أو إلى زعيم، وليس إلى جماعات، فإنها تُهَيّيء السبيل إلى تنامي الزعامية. وحينما يُقْدمُ الحزب الثوري على تَنْصيب زعيم له، على شكل "رئيس الحزب"، أو "كاتبه العام"، فإن هذا التّعيين يتناقض مع مبدأ "جَمَاعيَة القيَادَة، وَفَرْديَة المَسْئُولِيَة". وقد يُؤَدّي ذلك إلى فَردية القيادة، أو إلى تركيز المسؤوليات الأساسية بين يدي الزعيم وحاشيته. لذا فإن تَقْنين حَذْف وَظيفَة "رئيس الحزب"، ولو كانت على شكل "كاتبه العام"، قد تُساعد على تلافي السقوط في أسلوب الزعامية.

كل هذه العناصر تُدعم إيجابية تغليب أهمية الجماعة، بالمقارنة مع دور الفرد، ولو كان هذا الفرد زعيما ذي خِصال مُعتبرة.

رحمان النوضة

(حُرِّرَت الصيغة الأولى لهذا النَصِّ في ماي 1981، إبان الاعتقال السياسي لكاتبه رحمان النوضة، في السجن المركزي بمدينة القُنَيْطِرَة بالمغرب. حيثُ كان الكاتب مُتَّهَمًا بِـ «المَسِّ بِأمْن الدولة»، ومَحْكُومًا عليه بِـ «السِّجن المؤَبّد». وهذا النَصُّ هو فَصْل مُقتطف من كتاب رحمان النوضة (مكتوب داخل السّجن) ويحمل عُنوان : "كَيْف ؟ (في فُنون النضال السياسي الثوري)". ويُمكن تنزيل هذا الكتاب بالمجان من مُدَوَّنَة الكاتب : "https://LivresChauds.Wordpress.Com"، وكذلك من المدونة "nokkade.wordpress.com"). وَقَد حُيِّنَ هذا النَصُّ في 14 يناير 2021، بينما الكتاب لم يُحَيَّن).